« أيها الشرير ! » وأنت تذرف الدمع
أمام كل الناس !
يا يوم الثأر والعقاب !
حين تعرض ابنتك الحبيبة نفسها ، عاهرة صغيرة ،
ملكتها الرغبة العارمة ، وسكرت من الخمر ،
وأخذت تهمهم لك بكل قصص الزنا
الذي ارتكبت ...
هذا هو ثأرنا !
فليعش ثأرنا
نرثه جيلا بعد جيل !

واذا كان من الصعب أن نسمي مثل هذا السباب شعرا ، الا انه في الوقت ذاته يبين لنا بوضوح وجلاء الجانب اليهودي القبلي من شعر تشرنحوفسكي .

ومن أشهر قصائده اليهودية ، قصيدة « باروخ المغنتسي » ، وهي عبارة عن مونولوج طويل يناجي فيه بطل القصيدة قبر زوجته ، محدثا اياها عن اتراحه واوجاعه واحقاده ، وتدور حوادث القصيدة في العصور الوسطى حينما تمر الحملة الصليبية الاولى على بلدة مغنتسيا على نهر الراين ، ويقوم الجنود بقتل بعض اليهود ويحملون البعض الاخر على اعتناق المسيحية ، وكان من بين الفريق الاخير يهودي يسمى اوري ، وحسب الوقائع التاريخية نعرف ان الندم قد تملك اوري بعد فعلته هذه ، فقتل ابنتيه ، ثم انتحر بـأن أحرق نفسه ، ولكن تشرنحوفسكي غير هذا الجـزء من القصة جاعلا منها قصة ثـأر واستشهاد (البطل والشهيد بدلا من الضحية) ، فغير اسم اوري الى باروخ (المبارك)، ثم حوله الى بطل يقوم باضرام النار في الدير والمدينة ، وتهلـك ابنتاه اثناء الحريـق . والقصيـدة طويلة للغاية ، لذا فسنكتفي بترجمة بعض المقتطفـات منها ، عارضين لها بالتحليل : تبدأ القصيدة بالحديث عن هذا الموضوع الشائع المتكرر في كل الادب العبري، اضطهاد اليهود واستشهادهم :

في الشوارع تجري جموع الفلاحين والحرفيين ، رجال على الخيول ،
أنات الموتى ، وبكاء الاطفال ، أصوات النساء يلتمسن الرحمة ،
الاواني المحطمة ، والملابس المهلهلة والدماء تجري فوق الطين كالماء ،
وصيحات تملأ الروح بالرعشة : فلنضربهم حتى الموت .

في وسط هذا الهرج والمرج ، ينقذ باروخ جسده بأن يعتنق المسيحية . ولكن مأساته كما يراها هو ليست مأساة فرد وقـع ضحية اضطهاد الاغلبية ، بـل هي مأساة الشعب اليهودي ككل ، ولذا تفقد المأساة حدتها بل عمقها الانساني ، وتتحول الى صراع بـين كتل مجردة : اليهود والجوييم :

حينئذ لعنت شعبي ، اسرائيل ، ضرع امي ، مربيتي ،
الهي ... وكل مقدسات أبي بصقت عليها لاعنا !

بعد بؤسه الجماعي يتذكر باروخ بؤسه الفردي ، ولكنه حتى في هذه اللحظة ، كل مـا يوجعه انه يسجد لآلهة غريبة ، وليس لاله قبيلته المألوف لديه :

حينئذ لعنت كل آمالي ، وخنقت كل كياني ،
أقول « أبي » للغريب ، وأقول « أمي » للغريبة ،
وأخذت عهودا على نفسي لاله غريب لا اعرفه ، ولا اشعر نحوه بأي ولاء .
ثم انحنيت له ولكل قديسيه .

ان ما يؤلمه ليس مأساته كانسان وكفرد ، بـل كيهودي اضطر للانسلاخ عن جماعته ،